Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (4), Issue (7) : 30 July 2020
P: 52 - 59

ISSN: 2522-3380

مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (4)، العدد (7) : 30 يوليو 2020 م
ص:52 - 59

Ibn Al-Saiqal Al-Jazari and travel theme in his Makamat

Safa Raja Farhat

The Arab Academic College for Education || Haifa

Abstract: The situation in the Arab environment became disturbed, after the Mongols invaded it. Chaos spread and the scales over turned, which led to the emergence of gangs and bandits and thieves.

This chaos led to displacement, for fear of the oppression of these gangs, bearing in mind that those in charge of maintaining security are now commanding their affairs and dealing with them, on the principle of partnership. This is in addition to displacement in search of knowledge and truth, and the impact of these two dimensions has appeared in the Makamat of Ibn Al-Saiqal in their clear form.

Keywords: The mongols. the environment, politics, displacement, the fear, knowledge, Al-hariri.

ابن الصّيقل الجزريّ وتيمة السّفر في مقاماته

صفا رجا فرحات

الكلية الأكاديمية العربية للتربية || حيفا

الملخص: تقلقلت الأوضاع في البيئة العربيّة بعد غزو المغول لها، فعمّت الفوضى وانقلبت الموازين، الأمر الّذي أدّى إلى ظهور العصابات من قطّاع الطّرق واللّصوص.

وكانت النّتيجة الحتميّة لهذه الفوضى، النّزوح الإجباري، علما وأنّ القيّمين على حفظ الأمور صاروا يأتمرون بأمر هذه العصابات ويتعاملون معهم على مبدأ الشّراكة.

ولم تكن الأوضاع المزرية السّبب الوحيد للنّزوح، فقد كان البحث عن المعرفة واقتناص المعلومة، سببا هامّا في حدوثه، وقد ظهر تأثير هذين البعدين، في مقامات ابن الصّيقل بشكلهما الجليّ.

الكلمات المفتاحيّة: المغول، البيئة، السّياسة، النّزوح، الخوف، المعرفة، الحريري.

سؤال البحث:

لماذا برزت تيمة السّياحة في الفضاء المكاني، في مقامات بديع الزّمان الهمذاني والحريري، علما أنّهما لم يخضعا للظّروف الاجتماعيّة الّتي عايشها ابن الصّيقل الجزري؟

أهداف الدّراسة:

- إظهار تأثير الأوضاع الاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة على تبنّي أنماط سلوكيّة محدّدة ترمي إلى حفظ التّوازن، وهو ما ظهر في دور هذه البيئة في بلورة حياة ابن الصّيقل الجزري، وتأثيرها على إنتاجه الأدبي المتمظهر مقاماته، وفي هذا الانسياح الإجباريّ، هربا من الأوضاع المزرية.
- دراسة المقامات الزّينيّة الّتي لم تنل اهتماما كافيا يليق بها، علما أنّها أُهملت قديما وحديثا، فجاء هذا البحث ليضيف لبنة جديدة في دراستها، مع محاولة كشف تفاعلها الصّادق مع البيئة الّتي أنتجتها.

- التّأكيد على أنّ ابن الصّيقل، لم يخرج من دائرة الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، فهو ربيبها، ينهل من منابعها ويتأثّرها.

منهج البحث

لقد آثرت اتّباع المنهج التّحليليّ الاستقرائيّ في هذا البحث، معتمدا على الملاحظات الدّقيقة من خلال الدّراسة العينيّة للمقامات، بقصد الوصول إلى استنتاجات صائبة متّكئة على هذه الدّراسة.

لا بدّ بداية من إماطة اللّثام، عن هذه الشّخصيّة الّتي لم تنل حظّها من تراجم السّابقين واللّاحقين على حدّ سواء. فمن هو ابن الصّيقل الجزريّ؟

قليلة هي المصادر الّتي تطرّقت إلى حياته، وغالبيّة المصادر الّتي فعلت هذا، كانت مختصرة، مقتضبة، لا تغني ولا تسمن.

ويندرج هذا الأمر ضمن دائرة عدم الاهتمام بهذا المؤلّف وبما أنتج، لما لاقاه الدّارسون من صعوبة في فهم مقاماته، من السّابقين واللّاحقين، وللتّدليل على هذا، أسوق مثالا من كتاب:" فنّ المقامات بين المشرق والمغرب" ليوسف عوض فقد جاء فيه:" لم نشأ أن نقف طويلا عند مقامات الجزري، ذلك لصعوبة قراءتها من جهة، ولأنّنا لم نجد اختلافا في أغراضها أو في صناعتها، عمّا درج عليه المقاميّون السّابقون، من جهة أخرى"[1].

وقد أكّد العزوف عن هذه المقامات، بما فيها من تعقيد، ما جاء في دراسة العارف سيّد لنيل درجة الدّكتوراه، فقد أشار إلى ما يلي:

أمّا مقامات ابن الصّيقل، قد (هكذا) ملئت بألوان البديع والبيان الكثيرة المزدوجة إلى حدّ الاختناق، على حدّ تعبير محقّقها، ممّا أدّى إلى تعقيد الأسلوب وغرابة المعاني، فلا تفهم إلّا بالبحث الدّؤوب في المعاجم، فقد حمّل الألفاظ من المعاني فوق طاقتها، وكان مسرفا في الالتزام بالمحسّنات البديعيّة[2].

لقد أجمعت المصادر القليلة، على أنّه من أدباء القرن السّابع الهجري، لكنّهم أهملوا ترجمة حياته، فبقيت مجهولة، وعليه فإنّ المصادر، لم تسعفنا في التّعرّف إلى مولده ونشأته وإلى أساتذته الّذين أخذ العلم عنهم.

لكنّنا نستطيع أن نمسك ببعض الخيوط الواهية، من المصادر القليلة الّتي اقتضبت في ترجمة حياته، وكذلك من المقامات الّتي أنشأها.

فقد ورد في الأعلام للزّركلي ما يلي:" معد بن نصر الله بن رجب، أبو النّدى شمس الدّين بن أبي الفتح، المعروف بابن الصّيقل الجزري: أديب من أهل الموصل، توفّي سنة 701هـ، له المقامات الزّينيّة الّتي فرغ من تأليفها سنة 672هـ، خمسون مقامة على نسق الحريري، عزا روايتها إلى القاسم بن جربال الدّمشق[3].

ووردت كذلك ترجمة لحياته في معجم المؤلّفين، تراجم مصنّفي الكتب العربيّة، عمر رضا كحّالة : "معد الجزري(...701هـ-1302م، معد بن نصرالله رجب بن أبي الفتح بن أبي حسن إسماعيل الجزري البغداديّ، المعروف بابن الصّقيل(أبو النّدى شمس الدّين)، أديب من الوزراء، له المقامات الزّينيّة"[4].

نستخلص ممّا ورد في هذا المصدر ما يلي:

هو أديب ومن الوزراء، وله مقامات عُرفت بالمقامات الزّينيّة، وكنيته، ابن الصّقيل وليس ابن الصّيقل، كما ورد في الزّركلي، أو كما ورد في كتاب كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة في معرض الحديث عن مقاماته:"... فهي من إنشاء الشّيخ الإمام شمس الدّين أبى النّدى معد بن أبي فتح الله رجب، المعروف بابن الصّيقل الجزري، المتوفّى سنة 701هـ(إحدى وسبعمائة)؛ أوّلها، الحمد للّه الّذي أيّدنا اللّألاء... وهي خمسون مقامة كالحريري

لكنّه مؤخّر عنه، نسبها إلى أبي نصر المصري، وعزا روايتها إلى القاسم بن جريال الدّمشقيّ، وألّفها سنة 672هـ، اثنتين وسبعين وستّمائة[5].

وقد أكّد الحافظ جلال الدّين عبد الرحمن السيوطي، في بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة، على أنّه ابن الصّقيل، وهو أبو النّداء وليس أبا النّدى: "معد بن نصر الله بن رجب، شمس الدّين أبو النّداء بن أبي الفتح الجزريّ، المشهور بابن الصّقيل"[6].

أمّا في هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي فهو "ابن صيقل شمس الدّين أبو النّدى، معد بن أبى الفتح، نصرالله بن رجب الموصليّ، الشّهير بابن صيقل الجزريّ المتوفّى سنة 701هـ إحدى وسبعمائة، له المقامات الزّينيّة"[7].

ومن خلال الأسطر القليلة الّتي وردت في هذه المصادر، حول ترجمة حياة هذا المؤلّف، نرى اختلافا، حتّى وإن لم يكن جوهريّا، في كنيته، ممّا يعزّز الرّأي بأنّ هذا الأديب لم ينل اهتماما كافيا من مؤرّخي عصره، فانسحبت عدم الدّقّة إلى المصادر الحديثة.

وكنّا نرى دائما وفي مجال الحديث عن ابن الصّيقل، أنّ مقاماته تُقرن بمقامات الحريري الّذي ارتقى بها إلى مستوى فنيّ كبير، فقلّ الاهتمام به وظلّ متخلّفا عنه، علما، أنّ مقامات ابن الصّيقل لم تُدرس دراسة جدّيّة، لهذا، غُبن حقّه.

ولكي نلملم خيوط حياته، ونتعرّف على هذه الشّخصيّة المبدعة، وجب علينا تقصّي المعلومة من خلال مقاماته، علّنا نستطيع إضاءة بعض الجوانب الغامضة من شخصيّته، وقد تأكّدت القناعة بأنّه كان واسع الاطّلاع، فإضافة إلى كونه فقيها ونحويّا ولغويّا، فهو كذلك طبيب وفلكيّ ورياضيّ ومؤرّخ، إلى جانب تفقّهه بمواضيع كثيرة كانت سائدة في عصره.

ففي مقامته الثّانية المسمّاة" الطّوسيّة"، نراه ملّما بالأمور اللّغويّة:" دخلت عليكم دخول الميم الزّائدة على الدّلاص"[8].

أو كقوله في المقامة الثّالثة اللّاذقيّة، "وبين تيك الحزق، وهاتيك الخرق، وعّاظ تلبّبوا للعصبصب الشّديد، وترتّبوا ترتيب أسماء التّوكيد"[9].

ونراه ملّما بالأمور الرّياضيّة، فقد ورد في مقامته الأولى " البغداديّة" ما يلي:" وحضرنا اللّيل لنصف سبع، وعقدنا العقدة على تسعة أجذار سبعة وتسع، مشفوعة من الأطباق بعدد حروف الإطباق"[10].

وهو ملمّ بالأمور الطّبّيّة، إذ ورد في مقامته الرّابعة" الشّينيّة" ما يلي:" وكنت خشيت شدّة الاضطرام وازدحام حامي الظّلام، لعلمي أنّ هذين إذا حمّا أشدّ من التّشنّج بعد الحمّى"[11].

أو كما في قوله، في المقامة العشرين" العانيّة": " وخلت أن قد ظهر عليّ الأسد من مغابن العيص، فضمّني ضمّ المشيمة الجنين"[12].

كما أنّه كان ملّما بالتاريخ عالما به، فقد ورد في مقامته الرّابعة عشرة" الزّرنديّة" ما يلي:" ... وسير الدّبور، ويسّر سرور سابور"[13].

وهو يشير هنا إلى طلب ملك الفرس سابور، من قسطنطين ملك الرّوم، إرسال طبيبه لمعالجة ابنته، فعندما وجدت ابنته العافية، سرّ سابور لذلك.

ممّا ورد أعلاه، أشرنا إلى ثقافة ابن الصّيقل، وقد توصّلنا إليها من الإشارات المختلفة المبثوثة في نصوص مقاماته؛ وهناك الكثير من هذه الإشارات الّتي تدلّ دون ريب على سعة اطّلاع هذا المؤلّف، وإدراكه لمعارف عصره، ممّا يجعلنا نؤكّد القول: إنّه ابن عصره يتأثّره ويعكس ثقافته.

وعليه، يُنظر إلى الكاتب، أيّ كاتب، على أنّه ثمرة التّفاعلات البيئيّة، سياسة كانت أو اجتماعيّة أو ثقافيّة، وتتأثّر التّفاعلات الاجتماعيّة بما تفرزه السّاحة السّياسيّة من مؤثّرات تؤدّي على الصّعيد الاجتماعيّ، إلى ظهور معايير جديدة، تحكم العلاقات بين أفراد المجتمع، وتفرض سلوكيّات تكون نتيجة حتميّة للأوضاع الجديدة.

وهذه التّفاعلات، كوّنت شخصيّة ابن صيقل الجزري الّذي عاش فترة اجتياح المغول للدّولة العباسيّة، حين كان الخليفة فيها، لا يملك من النّفوذ شيئا، فتضعضع أمر الدّولة ممّا ادّى إلى انفصال أجزاء كبيرة منها، إضافة إلى ظهور فرق سياسيّة متناحرة إلى حيّز الوجود.

واتّبعت هذه الفرق طرقا غريبة وعجيبة للحصول على مبتغاها، في ظلّ التّدهور السّياسيّ والاجتماعيّ، ومن هذه الفرق: جماعة العيّارين الّذين اشتهروا ببطشهم إلى درجة أنّ الولاة خافوا على أنفسهم منهم. هذا إضافة إلى ظهور فرق انحلاليّة كثيرة، كانت تعمل في الطّبقات الفقيرة، وتقوم بتصرّفات تنافي الشّرع.

وهذه الأوضاع المضطربة، والتّهتّك، والانحلال الخلقيّ، وكثرة الحروب والفتن، فرضت نوعا من الهروب، أطلق عليه اسم" الانسياح الإجباري"، ويُقصد به، الرّحيل من مكان إلى آخر اضطراريّا، نتيجة انعدام الأمن، لهذا، تنقّل بطل المقامات من مكان إلى آخر، وظهر هذا جليّا، في إعطاء المقامات أسماء المدن الّتي رحل إليها.

وهنا يطرح السّؤال: لماذا، إذن، وجدنا ظاهرة تنقّل بطل المقامات عند الهمذاني والحريري، وفي بعض المؤلّفات الإسلاميّة الأخرى، علما أنّ هؤلاء الكتّاب لم يخضعوا لنفس الظّروف السّياسية الّتي وجد بها الجزري؟

وللإجابة عن هذا السّؤال، ننظر إلى ما ذهب إليه عبد الفتّاح كيليطو: "السّفر حاضر بكلّ أشكاله في مقامات الهمذاني، وعنده السّفر قبل كلّ شيء، حركة في الفضاء، ومؤلّف الهمذاني غنيّ بالتّجوالات وأسماء المكان، إحدى وعشرون مقامة (من مجموع اثنتين وخمسين) تحمل اسم مدينة أو منطقة"[14].

وقد تضاعف هذا العدد عند الحريري، فوصل عدد المقامات الّتي تحمل اسم مدينة او منطقة، على اثنين وأربعين مقامة، وعند الجزريّ إلى ستّ وأربعين مقامة.

والسّياحة في المملكة الإسلاميّة، تحمل في جنباتها امتداد رقعة الكتابة، وتحمل كذلك البحث عن المعرفة. والمعرفة واكتساب العلم، كما يقرّر كيليطو مرادفين للسّفر:"... في حمّى تنافسيّة، كان يتمّ الانطلاق واختراق الفلوات لجمع أحاديث الرّسول، والشّعر الجاهلي، ولغة البدو"[15].

ويظهر السّفر عند الجزري، في كثير من مقاماته، فيظهر في المقامة الحادية والعشرين ما يلي: " اضطررت حين مشاهدة المعيش، ومساعدة سهم المكاسب المريش، وشباك الأصب الواصب، واشتباك صعاد البطر الحاصب إلى مجاورة الأعراب، اضطرار الأسماء إلى الإعراب، لاكتسب عقود كفاحهم، واحتلب عقود إفصاحهم، وارتضع حبب حبائهم... فجعلت أجوب الفجاج، وأستجلب المجاج، وأستفتح الارتياج"[16].

وإذا كان اقتناص الأدب ضرب من ضروب المعرفة، فإنّ غالبيّة المقامات الزّينيّة تدور في هذا الفلك، ويظهر جليّا في التّركيز على معنى الثّقافة العامّة بما تحويه من كلّ أنواع المعرفة، وندلّل على هذا في رحيل " المصريّ" بطل المقامات، إلى الأقطار المختلفة، باحثا عن طبيب يعيد له ما فسد من صحّته، وهو نوع من البحث عن الأدب، أي، المعرفة، وهو بالتّالي يتطلّب سفرا ورحيلا، فقد ورد في المقامة السّادسة والثّلاثين" السّمنانيّة الطّبيّة ما يلي: " ... واخترت الجوامع والمختار، ممّن اصطفاهما واختار، علّ أن أحظى بطبيب معالج، ولو بإنفاق عدد رمل عالج، لأجدّد ما اخلولق من بدني واختلّ، وأبدّد لتحصيله جلّ جمل ما اعظوظم وقلّ مبيّنا أن أطأ الهالك وأقطع المهالك وأحذو السّالك واخترق المسالك"[17].

وفي البحث عن جذور موضوعة السّفر، نراها ضاربة في تأريخ النّصوص الكلاسيكيّة، ليس فقط في الأدب العربيّ وإنّما في الآداب الأجنبيّة، كإلياذة هوميروس، وملحمة جلجامش، على سبيل المثال. وفي الأدب العربيّ، تظهر

تيمة السّفر واضحة، في الشّعر العربيّ الكلاسيكيّ، إذ قسّم مبنى القصيدة الكلاسيكيّة إلى عنصرين أساسيّين وهما، الوقوف على الأطلال، وموضوعة : الرّحلة.

وقد أشار، شعيب حليفي، إلى هذا الأمر في" تيمة السّفر في النّصّ السّرديّ القديم:

" وقد اتّخذ السّفر تيمة مركزيّة ضمن البناء الشّعريّ، لتحقيق وظيفتين على الأقلّ: وظيفة شعريّة، جماليّة وتصويريّة، ترشّح بالمشاهد، ووظيفة أخرى ماديّة، تتوخّى تحقيق هدف في نفسيّة المتلّقي المتعيّن سلفا"[18].

لهذا نرى الشّاعر، يضرب في عرض الصّحراء وطولها، متكبّدا العناء والتّعب لينال ما يبحث عنه، وما يبحث عنه يتمثّل في الكسب الماديّ، الّذي تحوّل عند أبطال المقامات إلى كسب عقلانيّ، يغذّي العقل والنّفس معا.

وفي متابعة تقصّي، موضوعة السّفر في الأدب العربيّ، أو في ما ترجم إليه وأضيف عليه من روح هذا الأدب، ننظر في ما ورد في قصص ألف ليلة وليلة، عندما يكلّف الملك محمّد بن سبائك، تاجرا محبّا للحكايات، أن يعمل جهده ليجلب له حكاية غريبة، ويعده بالعطايا وبوزارة إن فعل، ومصادرة أملاكه إن لم يفعل. ويكلّف هذا التّاجر خمسة من مماليكه، ويرسلهم إلى أقاليم مختلفة، بعد تزويدهم بالمال، ليبحثوا عن الحكاية الغريبة، وقد وصلوا في بحثهم إلى بلاد الصّين والعجم والهند وبلاد المغرب. وينجح واحد فقط في تلبية الطّلب، وعندما تعرض القصّة على الملك وتنال إعجابه، ينثر على التّاجر الذّهب والفضّة، ويجعله وزيرا له.

وفي باب القرد والغيلم، من كتاب كليلة ودمنة: "...كان قد كبر وهرم، فوثب عليه قرد شابّ من بيت المملكة، فتغلّب عليه وأخذ مكانه، فخرج هاربا على وجهه، حتّى انتهى إلى السّاحل"[19].

لا شكّ أنّ هروب القرد العجوز هو نوع من أنواع السّفر، وهو سفر اضطراريّ، لأنّه سفر في طلب النّجاة، وكذلك كان السّفر في طلب البحث عن قصّة غريبة، إذ أنّ الملك فرضه على التّاجر وأغراه بالمال الوفير، إن حصل على مبتغاه، وبالتّشريد والإهانة إن هو لم يوفّق، وهذا ما نلمسه عامّة في المقامات، فالسّفر فيها اضطراريّعقليّ، ومن أجل البحث والتّنقيب والحصول على المعرفة.

لكنّه في غالبيّة المقامات الزّينيّة، إضافة إلى كونه سفرا بحثا عن المعرفة، هو هروب اضطراريّ، نتيجة للأوضاع المزرية سياسيّا واجتماعيّا، فيرحل ابن الصّيقل هاربا من أوضاعه البائسة، وهو انسياح اجباريّ، يظهر في الخلفيّة الفضائيّة الّتي أجبرت راوي المقامات على الرّحيل المستمرّ.

لقد ورد في افتتاحيّة المقامة الأولى" البغداديّة" ما يلي:" شُدهت مدّة من الشّهور، في حدثان الشّبيبة، بقفول قحط وشمول شحط ومخالعة اتّفاق ومراجعة أنفاق، تعجز عن كفاح حربه الأذمار"[20].

وفي المقامة الثّانية" الطّوسيّة" يقول ابن جريال:" رميت عن كبد قوس القضاء الجزيل الأنضاء، الوارف المتاعب الوافر المصائب إلى مدينة طوس"[21].

وفي المقامة الثّالثة، يذكر بأنّه نوى مفارقة اللّاذقيّة لغلبة غلباء، وسنة شهباء، مل لمعت لها بروق ولا ألمعت بها لاقح ولا بروق، وكنت في تلك المجاعات، وتهافت الجماعات، صاحب صبية"[22].

وفي المقامة السّادسة " الحجازيّة" يقول ابن جريال: "ألهمتني العناية العلويّة، والهداية اللّاهوتيّة، بأن أتقلّص عن العناد، وأتخلّص من مظالم العباد، وأقصد البيت العتيق"[23].

ورحيله إلى البيت العتيق، بنيّة التّخلّص من مظالم النّاس، علما أنّ الأوضاع السّياسيّة المزرية أدّت إلى تدهور الأوضاع واضطرابها، خاصّة الأوضاع الّتي شهدت انحلالا وتهتّكا شديدين، بسبب ظهور العصابات واللّصوص والفرق الانحلاليّة الّتي كانت تعمل في الطّبقات الفقيرة.

لا شكّ في أنّ هذه الأوضاع كانت نتيجة حتميّة، لما أفرزه الغزو المغولي، فعمّت الفوضى، وسيطر الخوف نتيجة القمع والتّهديد والتّرهيب فلم يجرؤ كتّاب تلك الفترة على التّعريض صراحة بهذا الغزو، واكتفوا بالإشارة

الدّالّة؛ ولندلّل على هذا الأمر من المقامة " الشّاخيّة"، يقول ابن جريال:" نبذني كرّ الفكر الأليم، إلى هوّة هول الوله المليم لجزع هائل ونزح غائل، يغيب لوقوعه الجنان، ويشيب قبل إنسانه الإنسان، فحين أظلم محيّا الحظّ النّاقص، وعظم ضرع التّضرّع القانص بادرت إلى احتذاء سبتيّة فتيّة"[24].

وما هو الجزع الهائل الّذي يغيب له الجنان ويشيب قبل إنسانه الإنسان؟ إنّه أمر عظيم وخطب جلل، مصيبة كبرى، حلّت على ابن جريال، الّذي يرمز إلى كلّ فئات المجتمع في عهد ابن الصّيقل الجزريّ، وليس أدلّ من هول مصيبة غزو التّتار، من قول ابن الأثير مشيرا إلى أنّ غزو المغول للشّرق الأدنى، هو أعظم كارثة حلّت بالإنسانيّة:" وأمّا الدّجال فإنّه يبقي على من اتّبعه، ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النّساء والرّجال والأطفال، شقّوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنّة، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم"[25].

وعليه، وبناء على ما ورد بخصوص الانسياح الإجباريّ، نرى أمرين اثنين:

الأمر الأوّل، يشير إلى أنّ ابن الصّيقل الجزريّ لم يخرج من دائرة الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، فهو ابن لهذه الثّقافة، نهل من ينابيعها، وأثّرت فيه تأثيرا كبيرا، ويظهر هذا التّأثير في الكمّ الهائل من الآيات القرآنيّة الّتي استشهد بها (اثنتان وتسعون آية كريمة)، ويظهر أيضا في استعماله للأمثال العربيّة الّتي وصل عددها، إلى اثنين وخمسين مثلا، إضافة إلى اعتماده موضوعات، تكرّر ورودها في الكتب الكلاسيكيّة المختلفة، ككتب السّير الشّعبيّة، وألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وكتب الجاحظ، وبخاصّة كتابه البخلاء، وكتاب الفرج بعد الشّدّة لأبي عليّ التّنوخيّ.

ولا يخفى تأثير الحريري على ابن الجزريّ، الّذي حاول الأخير اقتفاء آثاره، في تأليف المقامات، منافسا إيّاه، ليثبت علوّ شأنه في هذا المجال، ويلاحظ التّشابه الكبير في أسماء الكثير من المقامات، كما يلاحظ التّشابه الكبير في المواضيع الّتي تناولاها، وهو أمر حدا بمؤرّخي الأدب، العزوف عن ترجمة حياة ابن الصّيقل قديما وحديثا.

وأمّا الأمر، الثّاني فيؤكّد دور البيئة الّتي عاشها ابن الصّيقل، في بلورة حياته وتأثيرها على إنتاجه الأدبيّ، إذ جاءت مقاماته مترفة بالمحسّنات اللّفظيّة، وموغلة في الكلمات الحوشيّة وغريب اللّغة، هذا في وقت خفتت فيه العربيّة، ممّا حدا بحاملي لواء المحافظة عليها العمل على إحيائها من جديد.

ويظهر تأثير البيئة جليّا، في هذا الانسياح الإجباريّ لبطل المقامات إمّا بحثا عن المعرفة، أو هروبا من الأوضاع المزرية الخانقة.

ولا يفترض في هذا الهروب أن يكون حركيّا، فقد يكون هروبا للنّفس لتحفظ توازنها، في عالم تقلقلت موازينه، واضطربت اضطرابا شديدا، أدّت إلى تماهي الحدود واختفاء المعالم.

نتائج البحث:

- ترسّم الجزري خطى الحريري في إنشاء مقاماته، لكنّه أغرب فيها، وأكثر من التّعقيد وهو ما نفّر الأدباء منها، المتقدّمين منهم والمتأخّرين.
- على الرّغم من أستاذيّة ابن الصّيقل في المدرسة المستنصريّة وإملائه مقاماته على عدد ليس بقليل من العلماء، إلّا أنّه أثار جدلا حول اسمه ونسبه بين علماء عصره، الأمر الّذي انسحب كذلك على الباحثين المتأخّرين.
- في مجال ترسّم ثقافة ابن الصّيقل من خلال مقاماته، وجدناه واسع الاطّلاع، مدركا لمعارف عصره، فهو ابن ثقافته يتأثّره ويعكس ثقافته.
- سلوكيّات مجتمع ابن الجزري في القرن السّابع الميلادي، تحت ظلّ احتلال المغول للبلاد العربيّة، أفرزت تفاعلات سلبيّة على جميع المستويات، إذ صار الخليفة لا يملك من النّفوذ شيئا، فهزلت الدّولة، وعمّ الفساد،

واختلّت الموازين، ودبّ الانحلال بين طبقات المجتمع، الأمر الّذي أوجب هذا الهروب الدّائم، وهو ما أطلقنا عليه مصطلح: الانسياح الإجباريّ.

- ظاهرة التّنقّل والتّجوال، حاضرة في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، وهي تهدف إلى اقتناص ضروب المعرفة من جهة، والهروب من مخاطر قد تهدّد توازن الفرد النّاقم، كما ظهر في مقامات ابن الصّيقل، من جهة أخرى.

الهوامش

1- (عوض، 1979، ص202).
2- (العارف، 2007، ص10).
3- (الزّركلي، 1984، ص266).
4- (كحّالة، 1960، ص304).
5- (خليفة، 1974، ص1785).
6- (السّيوطي، د.ت، ص294).
7- (البغدادي، 1951، ص465).
8- (الجزري، 1980، ص99).
9- (الجزري، 1980، ص114).
10- (الجزري، 1980، ص88).
11- (الجزري، 1980، ص122).
12- (الجزري، 1980، ص192).
13- (الجزري، 1980، ص292).
14- (كيليطو، 2001، ص11).
15- (كيليطو، 2001، ص15).
16- (الجزري، 1980، ص297).
17- (الجزري، 1980، ص447).
18- (حليفي، 1994، ص251).
19- (المقفّع، 1996، ص188).
20- (الجزري، 1980، ص83).
21- (الجزري، 1980، ص95).
22- (الجزري، 1980، ص111).
23- (الجزري، 1980، ص143).
24- (الجزري، 1980، ص187).
25- (ابن الأثير، 1997، ص2785).

ثبت المصادر والمراجع

- ابن الأثير، (1997). الكامل في التأريخ. بيروت. لبنان. دار الكتاب المصنّفين. إستانبول.
- الجزري، ابن الصّيقل.(1980) المقامات الزّينيّة. دار المسيرة.
- خليفة، حاجي.(د.ت) كشف الظّنون.
- زركلي، خير الدّين.(1984) الأعلام قاموس تراجم. بيروت. لبنان. دار العلم للملايين.
- سيوطي، عبد الرحمن.(د.ت) بغية الوعاة في طبقات النّحويّين والنّحاة.ج2.
- شعيب، حليفي.(1994) فصول قراءات تراثيّة. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
- عارف، حسّان.(2007).المقامات الزّينيّة لابن الصّيقل الجزري- دراسة سرديّة. رسالة دكتوراه. جامعة المنصورة، كليّة الآداب. عدد الصّفحات 273.
- عوض، يوسف نور.(1997) فنّ المقامات بين المشرق والغرب. بيروت :دار العلم.
- كحّالة، عمر.(1960). معجم المؤلّفين تراجم مصنّفي الكتب العربيّة. دمشق. مطبعة التّرقّي.
- كيليطو، عبد الفتّاح.(1993). المقامات، السّرد والأنساق الثّقافيّة.(ترجمة عبد الكبير الشّرقاوي). المغرب. دار توبقال.
- مقفّع، عبدالله.(1996). كليلة ودمنة. لبنان. دار مكتبة التّربية.